جوانب من شخصية الامام الحسين (ع) ادب الحوار نموذجاً

د. محمد فهد القيسي
كلية الآداب / جامعة واسط

المقدمة

تعد الملامح الخارجية لأية شخصية – سواء كانت سلوكا ام مظهرا – دليلا على كثير من جوانبها الظاهرة و المخفية ، وهذه الملامح تحددت وفقا لعوامل متعددة لعل ابرزها العوامل الوراثية وعوامل التنشئة الاسرية والمحيط الاجتماعي وصولا الى التأثيرات الاقتصادية والدينية .

وعند مناقشة جوانب من شخصية ما يجب علينا اولا تحديد كل هذه العوامل حتى نعرف كيف تكونت هذه الشخصية وما هي ابعادها ، ولعل دراسة شخصية الامام الحسين ع من هذا الجانب ذات فائدة علمية كبيرة وتطبيقية واضحة، ذلك انها تعطي للباحث والمتلقي ما يمكن وصفه ب(الشخصية المتكاملة)، وهذا الوصف يضع لنا طريقا واضحا في كيفية استثمار الموارد المتاحة في سبيل بناء شخصية متكاملة بعد تحديد عوامل نجاحها وفقا للشخصيات المتكاملة التي ندرسها ، مع عدم اغفال نقطة جوهرية ومهمة وهي ان مصطلح الكمال الذي نتحدث به يعني كما هو معروف الكمال النسبي للأفراد الذي اقره الخالق لهم .

جاء البحث في هذا الموضوع ليسلط الضوء على جانب مهم من جوانب الشخصية الحسينية وهو كيف كان الامام الحسين يسلك طريق الحوار وكيف كان ادبه في ذلك .

توزع البحث على عدد من الفقرات ، وهذه الفقرات تم توزيعها على حالات حوارية جرت مع الامام الحسين (ع) حسب اماكن تواجده فجاءت الفقرة الاولى : في المدينة، والثانية : في مكة ، والثالثة : في طريقه الى كربلاء ، والرابعة : في كربلاء

ان البحث في هذا الموضوع في غاية الاهمية لأنه ينطوي على امكانية تطبيقية في استثمار هكذا موضوع – ادب الحوار – في معالجة المشاكل الراهنة التي نعيشها ، والتي من ابرزها التهميش والالغاء والتطرف ومصادرة حقوق الافراد في ابداء آرائهم وصولا بالمجتمع الى غايته المثلى في انه لا اكراه في الدين لان الله قد بين الرشد من الغي .

تمهيد : شخصية الامام الحسين وعوامل تكوينها

لقد تضافرت عدة عوامل في تكوين شخصية الامام الحسين ع وتنوعت هذه العوامل بين الذاتية الشخصية والموضوعية الخارجية، فمن العوامل الذاتية هي الميزات الوراثية التي انتقلت له بحكم سلالة الاباء والاجداد فالمعروف ان نسبه هو : الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قَصي، وأُمّه فاطمة بنت

رسول الله . صلّى الله عليه واله وسلّم . واُمها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي [١].

وهنا نجد ان سلالته ونسبه تعود لأشخاص كانوا ذوي فضل في اقوامهم ، وهذا انعكس بطبيعة الحال على شخصيته وسلوكه ، ومن ثم جعل منه انسانا متكاملا يجب الاقتداء به ،وما يؤكد ذلك انه عند تناول نسبه الكامل وبما انه يتصل بنسب رسول الله صلى الله عليه واله نجد انه : الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

ومن جهة الام فهو : ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [٢].

اما العوامل الموضوعية الخارجية فتمثلت بالمحيط الذي نشأ فيه الامام الحسين فقد ولد في المدينة في ٣ شعبان سنة ٤ هـ، وقد سماه جده رسول الله بالحسين، وأذن له في أذنه ودعا له، وذبح عنه في يومه السابع شاة، وتصدق بوزن شعره فضة[٣]. وكان يقول عنه جده محمد بن عبد الله: حسين مني وأنا منه أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط[٤].

وقد نشأ الحسين في بيت رسول الله بالمدينة ست سنوات وأشهراً، حيث كان فيها موضع الحب والحنان من جده النبي، وكان يشبه جده خلقاً وخلقا ، ويذكران النبي كثيراً ما يداعبه ويضمه ويقبله، ، فهو مثال للتدين في التقى والورع، وعرف عنه انه كثير الصوم والصلاة ومعروف بالكرم والصدقة ومجالسة المساكين [٥]، ومن هنا نجد ان شخصية الحسين تعد شخصية مثالية يمكن الاقتداء بها وعدها من ضمن النموذج الانساني الاكمل.

في المدينة

من المعروف ان الحسين ولد وترعرع في المدينة المنورة، ومن ادب حواره (ع) فيها ما يذكر حين كتب يزيد بن معاوية بعد توليه الخلافة كتاباً إلى ابن عمه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وكان (والى المدينة) يخبره بموت معاوية، ويأمره بأخذ البيعة من اهل المدينة عامة ومن الحسين بن علي خاصة.

ويذكر خليفة بن خياط في تاريخه :(وفي سنة ستين توفي أمير المؤمنين معاوية في رجب لأربع ليال خلت منه واستخلف يزيد بن معاوية ... وفيها نزع الوليد بن عتبة عن المدينة وأمر عمرو بن سعيد على المدينة ومكة والطائف فحج عامئذ بالناس عمرو بن سعيد ثم نزع مستهل ذي الحجة وأمر الوليد بن عتبة [٦] .

وقد أرسل الوليد إلى الإمام الحسين وقرأ عليه كتاب يزيد، فقال الحسين: أيها الوليد: إنك تعلم انا أهلُ بيتٍ بنا فتَح الله وبنا يختم، ومِثْلي لا يبايع

ليزيد شارب الخمور وراكب الفجور وقاتل النفس المحترمة[٧] .

وعند تحليل هذا الحوار نجد ان الامام الحسين اجرى موازنة دقيقة بين من الاصلح لقيادة الامة ،هل هو سليل الدوحة المحمدية والملتزم بأحكام الشرع والمؤتمن على الدين؟ ام من عرف عنه انتهاكه لأحكام الشرع والذي يغيب عقله بشرب الخمر ؟ ويسيء لسيرته باتباع الفجور والفسق ، والذي لا حرمة للدماء عنده ،وهو يزيد.

ويذكر السيد هبة الدين الشهرستاني حول نفس هذه الحادثة : ان الحسين جاء الى والي المدينة الوليد بعد ان امر باستدعائه ،فاستقبله الوليد بالترحاب وكان الحوار بينهما هادئا ،لكن مروان بن الحكم الذي كان حاضرا المجلس تدخل بعنف في الحوار اذ وجه كلامه الى الوليد قائلا :(يا امير لاتدع حسينا يخرج من عندك حتى يبايع او تضرب عنقه) وهنا اجابه الحسين بما يتلاءم معه من منطق، ففي بعض الاحيان هناك اشخاص لا يفهمون الا لغة التهديد والقوة ، قال له الحسين ع:(يا ابن الزرقاء اانت تقتلني ام هو ؟ كذبت والله ولئمت) ثم انصرف هو ومن معه[٨].

ونلحظ هنا ان الامام لم يتعرض الى الوليد بشكل شخصي على العكس من مروان، وذلك لان الوليد كان مؤدبا في حواره فكان مستحقا من الامام الحسين ان يناقشه بشكل منطقي فاخبره بما يمنعه عن بيعة يزيد ، وان المانع من ذلك مانع شرعي لعدم توفر شروط الخلافة في يزيد ، بينما عندما حاوره مروان واستخدم الاسلوب العنيف في الحوار اجابه الامام بما يتلائم معه ، وهذا هو الاسلوب القرآني في الحوار فالقران يحاور من يريد الهداية الى ابعد نقطة في الحوار ، لكن الذي يسد باب الحوار والهداية ينعته القران الكريم بأحط الصفات فيقول عنهم :(ان هم الا كالأنعام بل هم اضل سبيلا)[٩].

كما ان القران الكريم في بعض الاحيان ولمثل هذه النماذج المتجبرة يستعمل اسلوبا يلائمهم فيصفهم بأحط صفاتهم اذ يرد : (عتل بعد ذلك زنيم)[١٠] .

يذكر الذهبي :" وكتب مروان إلى معاوية : إني لست آمن أن يكون حسين مرصدا للفتنة وأظن يومكم من حسين طويلا "[١١] ، وهذا تحريض صريح على الحسين من قبل مروان بن الحكم ، ولأجل ذلك كان رد الامام عليه قاسيا .

في مكة

قرر الامام الحسين بعد موقفه مع الوليد بن عتبه ومروان بن الحكم الهجرة من المدينة الى مكة ، وفي هذه الهجرة التفاتة مهمة فهي هجرة عكسية لهجرة الرسول الاكرم الذي هاجر من مكة الى المدينة ، ويمكن ان نستنتج ان الامام بذلك يعطينا درس بليغ ومهم وهو ان الاماكن ليست مهمة ومقدسة بحد ذاتها، بل بالموقف الذي تحتويه؛ فيثرب تحولت من مدينة عادية الى مدينة منوره بنور الرسول ، وذلك عندما ناصرت الحق وصدحت به ، لكن نفس المدينة عندما غلب عليها ائمة الجور والظلم ضاقت بسبط الذي نورها بنوره ، وفي ذلك التفاته مهمة .

وصل الامام الحسين الى مكة في الثالث من شعبان بعد ان نصحه جماعة فقالوا له:

لو تنكبت على الطريق كما فعل ابن الزبير فأجابهم الامام : (لا والله لا افارق الطريق الاقوم حتى يقضي الله ما هو قاض)[١٢] وفي ذلك بيان لموقف الامام من الاخر وهو ان الامام لا يخشاه وانه يتحرك بمبدء ، ومن ثم فلا ضير من التحرك بشكل علني ، على العكس من ابن الزبير التي اثبتت الوقائع السالفة واللاحقة انه كان يتحرك بمصلحية واضحة ،ودليل ذلك قتاله للخليفة الشرعي الامام علي (ع) في معركة الجمل [١٣] . وفي مكة المكرمة حاور الامام الحسين الاخر الاموي حوارا خاصا من خلال اظهار مقدار تعلق الناس به ومبايعتهم له ، واظهر للأمويين ان شرعيتهم وشعبيتهم قليلة بدليل الكتب التي تواردت على الامام بالألاف تدعوه للمسير الى العراق.

اذ الح عليه أهل العراق بالتوجه إلى بلادهم ليبايعوه بالخلافة، لأنه أولى من غيره، فإنه ابن رسول الله وسبطه، والمنصوص عليه بالإمامة من جده رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لقوله: (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا). أي سواء قاما بأعباء الخلافة أو غصبت عنهما.

الى أن اجتمع عند الحسين إثنا عشر ألف كتاب من أهل العراق وكلّها مضمون واحد، كتبوا إليه: قد أينعت الثمار واخضر الجناب، وانما تقدم على جند لك مجندة، إن لك في الكوفة مائة ألف سيف، إذًا لم تقدم إلينا فإنا نخاصمك غداً بين يدي الله، فأرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة .

ودخل أبو بكر بن الحارث بن هشام على الحسين فقال: يا ابن عم، إن الرحم يظائرني عليك، ولا أدري كيف أنافي النصيحة لك، فقال: يا أبا بكر ما أنت ممن يستغشُّ ولا يتهم، فقل، فقال أبو بكر: كان أبوك اقدم سابقة، وأحسن في الإسلام أثراً، وأشد بأساً، والناس له أرجى، ومنه أسمع وعليه أجمع، فسار إلى معاوية والناس مجتمعون عليه إلا أهل الشام وهو أعز منه، فخذلوه، وتثاقلوا عنه، حرصاً على الدنيا، وضناً بها، فجرعوه الغيظ، وخالفوه حتى صار إلى ما صار إليه من كرامة اللّه ورضوانه، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا، وقد شهدت ذلك كله ورأيته، ثم أنت تريد أن تسير إلى الذين عدوا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ومن أعدُّ منك وأقوى، والناس منه أخوف، وله أرجى، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطغوا الناس بالأموال، وهم عبيد الدنيا، فيقاتلك من وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره، فاذكر اللّه في نفسك، فقال الحسين: جزاك اللّه خيراً يا ابن عمر، فقد أجهدك رأيك، ومهما يقْض اللّه يكن، فقال: إنا للّه وعند الله نحتسب يا أبا عبد اللّه[١٤] .

ومن خلال هذا الموقف نجد ان الامام الحسين كان يتحرك بوحي من ايمانه بقضية عادلة دون الالتفات الى الامور الجزئية ،ففي علاقته مع الاخر اراد ان يظهر له انه سائر في طريق المبادئ الحقة دون الاكتراث لما يشاع من حوله .

ومن مصاديق الحوار مع الاخر للإمام الحسين في مكة انه بلغ ابن الزبير أن الامام يريد الخروج إلى الكوفة ، ويذكر المسعودي ان الحسين كان أثقل الناس علي ابن الزبير ، فقد غمه مكانه بمكة، لأن الناس ما كانوا يعدلونه بالحسين، فلم يكن شيء يؤتاه أحب إليه من شخوص الحسين عن مكة، فأتاه فقال: أبا عبد الله ما عندك، فواللّه لقد خفت الله في ترك جهاد هؤلاء القوم على ظلمهم واستذلالهم الصالحين من عباد اللّه، فقال الحسين: قد عزمت على إتيان الكوفة، فقال: وفقك اللّه!! أما لو أن لي بها مثل أنصارك ما عدلت عنها، ثم خاف أن يتهمه فقال: ولو أقمت بمكانك فدعوتنا وأهل الحجاز إلى بيعتك أجبناك وكنا إليك سراعا، وكنت أحق بذلك من يزيد وأبي يزيد[١٥] .

وهنا نلحظ ان الامام في حواره مع الاخر يحافظ على اي مقدار من المشتركات معه في سبيل القضية الكبرى ،وهي حفظ بيضة الاسلام فرغم ان ابن الزبير له مواقف سلبية جدا مع البيت العلوي ، وذلك في حرب الجمل ، الا ان الامام لم يفتح معه هذه الامور وهو يعلم حقيقته .

وبالفعل كان عبد الله بن الزبير قاسيا حتى مع اخيه في سبيل مصلحته، اذ يذكر ابو الفداء :(ولما استقر يزيد في الخلافة أرسل إلى عامله بالمدينة بإلزام الحسين وعبد الله بن الزبير وابن عمر بالبيعة فأما ابن عمر فقال : إن أجمع الناس على بيعته بايعته وأما الحسين وابن الزبير فلحقا بمكة ولم يبايعا وأرسل عامل المدينة جيشاً مع عمرو بن الزبير أخي عبد الله بن الزبير وكان شديد العداوة لأخيه عبد اللّه لقتال أخيه عبد الله فانتصر عبد الله بن الزبير وهزم الجمع الذي مع أخيه وأمسك أخاه عمراً وحبسه حتى مات في حبسه)[١٦] .

في الطريق الى كربلاء

يذكر ابن كثير حول مسيرة الحسين (ع) الى الكوفة :(قال أبو مخنف عن أبى جناب عن عدى بن حرملة عن عبد الله بن حرملة عن عبد الله بن سليم والمذرى بن المشمعل الأسديين قالا أقبل الحسين فلما نزل شرف قال لغلمانه وقت السحر استقوا من الماء فأكثروا ثم ساروا إلى صدر النهار .

فسمع الحسين رجلا يكبر فقال له مم كبرت؟ فقال رأيت النخيلة فقال له الأسديان: إن هذا المكان لم ير أحد منه نخيلة، فقال الحسين فماذا تريانه رأى ؟فقالا هذه الخيل قد أقبلت فقال الحسين أما لنا ملجأ نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد فقالا بلى ذو حسم فأخذ ذات اليسار إليها فنزل وأمر بأبنيته فضربت.

وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمى وهم مقدمة الجيش الذين بعثهم ابن زياد حتى وقفوا فى مقابلته في نحو الظهيرة ،والحسين وأصحابه معتمون متقلدون سيوفهم. فأمر الحسين أصحابه أن يتروووا من الماء ويسقوا خيولهم وأن يسقوا خيول أعدائهم أيضا)[١٧] .

وهنا التفاته عظيمة من الامام الحسين في ارواء خيول اعدائه وهي التي من المحتمل ان تسبب له الضرر، لكنه يريد منا ان نتعلم ان الذي يقاتل من اجل قضية عادلة لا يتصرف وفق منطق انتقامي او كسب للمعركة باي ثمن، بل يجب ان يضرب مثلا

اعلى بحسن السيرة والايثار وان يكون مسؤولا عن الامة ككل حتى الضالين والمنحرفين منها.

ولما دخل وقت الظهر أمر الحسين الحجاج بن مسروق الجعفى فأذن ثم خرج الحسين فى إزار ورداء ونعلين فخطب الناس من أصحابه وأعدائه ،وبين إليهم السبب فى مجيئه هذا إلى ههنا بأنه قد كتب إليه أهل الكوفة أنهم ليس لهم إمام وإن أنت قدمت علينا بايعناك وقاتلنا معك . ثم أقيمت الصلاة فقال الحسين للحر تريد أن تصلى بأصحابك قال لا ولكن صل أنت ونحن نصلى وراءك فصلى بهم الحسين[١٨] ، ثم دخل إلى خيمته واجتمع به أصحابه وانصرف الحر إلى جيشه وكل على أهبته ،فلما كان وقت العصر صلى بهم الحسين ثم انصرف فخطبهم وحثهم على السمع والطاعة له وخلع من عاداهم من الادعياء السائرين فيكم بالجور ،فقال له الحر إنا لا ندرى ما هذه الكتب ولا من كتبها فأحضر الحسين خرجين مملوئين كتبا فنثرها بين يديه وقرأ منها طائفة.

وهنا يلجأ الامام في حواره مع الاخر الى ابراز الدليل المادي الذي يغني عن الكثير من الكلام ،فقد اظهر الامام الكتب التي وردت اليه من العراق تطالبه بالمسير وتولي الامر .

" فقال الحر لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك في شيء ،وقد أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله بن زياد، فقال الحسين الموت أدنى من ذلك، وهنا كان جواب الامام قاطعا انه لن يتزحزح عن مكانه .

ثم قال الحسين لأصحابه اركبوا فركبوا النساء فلما أراد الانصراف حال القوم بينه وبين الانصراف [١٩] ".

وهذه الرواية يرويها مؤرخ متحامل على الشيعة اذ يذكر ابن كثير في مستهل ذكره لحادثة كربلاء ما نصه :" استهلت هذه السنة والحسين بن على سائر إلى الكوفة فيما بين مكة والعراق ومعه أصحابه وقراباته فقتل في يوم عاشوراء من شهر المحرم من هذه السنة على المشهور الذى صححه الواقدى وغير واحد وزعم بعضهم أنه قتل فى صفر منها والأول أصح وهذه صفة مقتله مأخوذة من كلام أئمة هذا الشأن لا كما يزعمه أهل التشيع من الكذب " [٢٠] لكن برغم هذا التحامل الا انه يثبت مبدئية الامام الحسين كما اسلف بذكر حادثة اروائه لخيل اعدائه .

في كربلاء

يرد حول حوار الحسين (ع) في معركة كربلاء:

"قال ابن اعثم الكوفي : ثمَّ ارسل الحسين رحمه اللّه إلى عمر بن سعد: إني أريد ان أكلمك ، فالقني الليلة بين عسكري وعسكرك .

قال فخرج إليه عمر بن سعد في عشرين فارساً، واقبل الحسين في مثل ذلك ، فلما التقيا امر الحسين أصحابه فتنحوا عنه ، وبقي معه اخوة العباس وابنه علي الا كبر رضي اللّه عنهم ، وامر عمر بن سعد أصحابه فتنحوا، وبقي معه حفص ابنه وغلام له يقال له لاحق .

فقال له الحسين رضي اللّه عنه :

ويحك يا ابن سعد! اما تتّقي اللّه الذي إليه معادك ان تقاتلني ،وانا ابن من علمتَ يا هذا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم!؟ فاترك هؤلاء وكن معي ، فإني اقربك إلى اللّه عزّ وجلّ.

فقال له عمر بن سعد: ابا عبداللّه ! اخاف ان تهدم داري !

فقال له الحسين رضي اللّه عنه : انا ابنيها لك .

فقال : اخاف ان تؤخذ ضيعتي !

فقال الحسين : انا اخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز"[٢١] .

وعند تحليل هذه المحاورة نجد الاتي :

١. حرص الامام الحسين على ان يكون هو المبادر بالحوار مع الاخر ، وهذا من صميم واجبة لأنه مسؤول عن كل فرد من افراد هذه الامة .
٢. حرص الامام على ان يكون حواره مع الاخر على اضيق مستوى كي يوفر له الجو الملائم للنقاش ،دون ان يكون خائفا ممن ينقل الاخبار الى قيادته العليا الممثلة بعبيد الله بن زياد .
٣. توجيه انظار الاخر الى مكانة الحسين المعنوية من رسول الله ، وبالتالي فهو يستخدم الاسلوب الوجداني في الحوار ،عسى ان يرتدع الاخر عن اتيان الفعل القبيح .
٤. مجاراة الامام لعمر بن سعد فيما يقول ، والصبر على اعذاره الواهية فالإمام ورغم ما يحمله من مبادئ فانه يناقش عمر بن سعد في اجوبته المتهالكة ،وهو يوضح للإمام السبب في عدم انصياعه للحق، فيضمن له الامام الحسين بناء داره لو تهدمت ، ورد ضيعته لو اخذت ، ومن خلال هذه الفقرة نستطيع معرفة الفرق بين حسين المبادئ والقضية العادلة ،وبين عمر بن سعد الذي اخلد الى الارض.

وبالرغم من حالة الصد والرفض من المعسكر الاخر فقد حرص الا مام الحسين (ع) على مواصلة احتجاجاته على أعدائه وهو يعلم ان القوم قاتلوه، وذلك ليتم الحجة عليهم أمام اللّه تبارك وتعالى ، وليستنقذ من يمكن ان ينتفع بمعرفة الحق والحقيقة ،وليكشف للامة عامة ولأجيالها الاتية فيما بعد عصره خاصة ،من خلال بياناته الاحتجاجية عن حقّانية قيامه ، وعن أحقيته بالا مر، وعن أبعاد مظلوميته (ع).

قال اليعقوبي في تأريخه : "فلما كان من الغد خرج فكلّم القوم ،وعظّم عليهم حقّه ، وذكّرهم اللّه عزّ وجلّ ورسوله ، وسألهم ان يخلّوا بينه وبين الرجوع ، فأبوا إلاّ قتاله او اخذه حتّى يأتوا به عبيد اللّه بن زياد، فجعل يكلّم القوم بعد القوم ،والرجل بعد الرجل ، فيقولون ما ندري ما تقول !".

وهنا نلحظ ان الامام الحسين كان حريصا على توجيه كلامه للآخر سواء كان من القادة كعمر بن سعد ، او كان من الجنود البسطاء .

وقد روى الشيخ المفيد في الا رشاد قائلا : "ثم دعا الحسين براحلته فركبها، ونادى بأعلى صوته: (يا اهل العراق) وجلّهم يسمعون فقال :ايها الناس إ سمعوا قولي ولا تعجلوا حتّى اعظكم بما يحقّ لكم عليَّ، وحتّى اعذر إ ليكم ، فإن اعطيتموني النصف كنتم بذلك اسعد، وإن لم

تعطوني النصف من انفسكم فاجمعوا رايكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثمَّ اقضوا إليَّ ولا تنظرون ، إ نَّ وليِيَّ اللّه الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين .ثم حمد اللّه واثنى عليه وذكر اللّه بما هو اهله ، وصلّى على النبي(ص) وعلى ملائكته اللّه وانبيائه ، فلم يسمع متكلّم قطّ قبله ولا بعده ابلغ في منطق منه ، ثم قال :اما بعد: فانسبوني فانظروا من انا، ثم ارجعوا إلى انفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي !؟ الست ابن بنت نبيكم ، وابن وصيه وابن عمِّه واول المؤمنين المصدق لرسول اللّه بما جاء به من عند ربه ؟ او ليس حمزة سيد الشهداء عمي ؟ اوليس جعفر الطيار في الجنة بجناحين عمِّي ؟ اولم يبلغكم ما قال رسول اللّه لي ولأخي : هذان سيدا شباب اهل الجنة ؟ فإن صدقتموني بما اقول وهو الحق، واللّه ما تعمدت كذباً منذ علمت ان اللّه يمقت عليه اهله ، وإن كذّبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك اخبركم ، سلوا جابر بن عبداللّه الا نصاري، وابا سعيد الخدري ، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد ابن ارقم ،وانس بن مالك ، يخبروكم انهم سمعوا هذه المقالة من رسول اللّه (ص) لي ولأخي، اما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي !؟).

فقال له شمر بن ذي الجوشن : هو يعبد اللّه على حرف إ ن كان يدري ما تقول ! فقال له حبيب بن مظاهر: واللّه إني لا راك تعبد اللّه على سبعين حرفاً! وانا اشهد انك صادقٌ ما تدري ما يقول ، قد طبع اللّه على قلبك"[٢٢] .

وعند تحليل هذا الحوار نجد الاتي :

١. كان الامام حريصا ان لا يقاتل اعدائه حتى يبين لهم الحقيقة كاملة ، ومن ثم يقيم الحجة عليهم .
٢. قام الامام الحسين (ع)بتنبيه الناس الى انه الامتداد الحقيقي للرسالة المحمدية دون ان يكون ذلك نابعا من القرب النسبي ، بل من خلال القرب المبدئي.
٣. استخدم الامام اسلوب التحقق من الخبر لزيادة الحجة على من اراد قتاله بدليل انه اراد منهم سؤال عدد من الصحابة حول ما قاله ، وهذا يدل على قوة الحجة ، وعدم الخوف من التحري عنها .
٤. نلحظ مقدار تعنت الاخر ممثلا بشمر بن ذي الجوشن الذي ورغم ما قدمه الامام من ادلة مقنعة الا انه رفض الانصياع لها .

ورغم حالة الاعراض عن الامام الا ان الحوار المتسامي مع الاخر انتج انفصال الحر بن يزيد الرياحي عن معسكر عمر بن سعد ولجوئه الى معسكر الحسين ، الذي قبله وبشره بتوبة الله عليه على الرغم من انه كان السبب الرئيس في حصر الامام الحسين وتمكين جيش ابن سعد منه حيث يرد بخصوص ذلك :

(ثم ضرب الحر فرسه فلحق بالحسين (ع)فقال له : جعلت فداك يا ابن رسول اللّه ! انا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع ، وسايرتك في الطريق ، وجعجعت بك في هذا المكان ، وما ظننت ان القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ! ولا يبلغون منك هذه المنزلة ! واللّه لو علمت انهم ينتهون بك إلى ما ارى ما ركبت منك الذي ركبت ، واني تائب إلى اللّه مما صنعت! فترى لي من ذلك توبة ؟

فقال له الحسين (ع): نعم ، يتوب اللّه عليك ،فانزل .

قال : انا لك فارساً خير منّي راجلاً، اقاتلهم على فرسي ساعة ،وإلى النزول ما يصير آخر امري .

فقال له الحسين (ع): فاصنع يرحمك اللّه ما بدالك).

وهنا حاور الامام الحسين الاخر من خلال احد افراده الذين كانوا معه ، وفي ذلك حجة بالغة ، وتوبيخ اكيد لهم ، ثم خاطبهم الحر قائلا :

يا اهل الكوفة ، لأُمِّكم الهبلُ والعبر! دعوتم هذا العبد الصالح حتّى إذا اتاكم اسلمتموه !؟ وزعمتم انكم قاتلو انفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه !؟ امسكتم بنفسه ، واخذتم بكظمه ، واحطتم به من كلّ جانب لتمنعوه التوجه في بلاد اللّه العريضة ! فصار كالا سير في ايديكم لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضراً! وحلاتموه ونساءه وصبيته واهله عن ماء الفرات الجاري يشربه اليهود والنصارى والمجوس ! وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ! وهاهم قد صرعهم العطش ! بئس ما خلفتم محمداً في ذريته، لا سقاكم اللّه يوم الظماء الا كبر.

وهنا نلحظ مقدار ظلم الاخر وتعديه اذ لم يدخر شيئا الا ومنعه عن الامام الحسين ، حتى الماء الذي هو مباح للجميع ، والذي لم يمنعه الامام الحسين على الجيش الذي قام بحصره .

فحمل عليه رجال يرمونه بالنبل !فاقبل حتّى وقف امام الحسين (ع)) ، وهذا يدل على ان الاخر لم يكن مستعدا للحوار بدليل انهم اجابوا الحر بالنبال دون المقال .

وقد عرض عليهم الامام الحسين ثلاث مطالب فقال: اختاروا مني واحدة من ثلاث: إما أن تدعوني فألحق ، بالثغور أو أذهب إلى يزيد، أو أنصرف من حيث جئت فقبل ذلك عمرو، وكتب إلى عبيد الله بذلك، فكتب عبيد الله لا ولا كرامة حتى يضع يده في يدي، فقال الحسين: لا والله لا يكون ذلك أبداً[٢٣] .

ومن ثمار هذا الحوار انه كان مع عمر بن سعد ثلاثون رجلا من اهل الكوفة فقالوا: يعرض عليكم ابن بنت رسول اللّه (ص) ثلاث خصال فلا تقبلون منها شيئاً!؟ فتحولوا مع الحسين فقاتلوا معه .

فالإمام في حواره مع الاخر وكي يوفر له مناخا ملائما ، استعمل اسلوب الخيارات المتعددة المطروحة امامه دون الزامه بخيار واحد ،وهذا اسلوب راقي وعملي في الحوار مع الاخر.

كما ان الامام الحسين أقبل على أصحابه فقال: إن القوم ليسوا يقصدون غيري، وقد قضيتم ما عليكم فانصرفوا، فأنتم في حل. فقالوا: لا والله، يا ابن رسول الله، حتى تكون أنفسنا قبل نفسك، فجزاهم الخير [٢٤] .

وبعد كل هذا لم يستجب القوم لدعوة الامام بالحوار العقلاني الهادف بل كان موقفهم كالاتي:

(فقصده القوم بالحرب من كلّ جانب ،فجعل يحمل عليهم ويحملون عليه ، وهو في ذلك يطلب الماء ليشرب منه شربة ! فكلّما حمل بفرسه على الفرات حملوا عليه حتّى اجلوه عنه ، ثم رماه رجل يقال له ابو الحتوف الجعفي بسهم فوقع السهم في

جبهته ،فنزع الحسين السهم ورمى به ، فسال الدم على وجهه ولحيته[٢٥] ، وهنا انقطع الحوار الايجابي بين الامام الحسين والقوم ، وذلك بعد ان استحلوا دمه ، وبذلك اصبح الوضع كما قال الامام الحسين :(انتم امة ونحن امة) وعليه فقد اصبحوا مستحقين للدعاء عليهم ، لذا دعا الامام بالاتي :

(أللّهم قد ترى ما انا فيه من عبادك هؤلاء العصاة العتاة ! اللّهم فاحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تذر على وجه الا رض منهم احداً، ولا تغفر لهم ابداً!)

وهذا الاسلوب في الحوار مع الاخر المعاند والجاحد بالدعاء عليه له ما يؤيده في القران الكريم ، فان نوخ (ع) بعد ان دعى قومه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يستجيبوا له قام بالدعاء عليهم بالدعاء المشهور :(قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا. فلم يزدهم دعائي الا فرارا ... وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا)[٢٦]

واستمر المعسكر المعادي للإمام الحسين بإظهار اقصى درجات الخسة والوضاعة ، وذلك عندما هاجم عائلة الحسين من نساء واطفال.

حيث يروى : (ثم ان شمر بن ذي الجوشن اقبل في نفر من عشرة من رجالة اهل الكوفة قبل منزل الحسين الذي فيه ثقله وعياله ، فمشى نحوه ، فحالوا بينه وبين رحله ، فقال الحسين :

ويلكم إ ن لم يكن لكم دين ، وكنتم لا تخافون يوم المعاد، فكونوا في امر دنياكم احراراً ذوي احساب ، إ منعوا رحلي واهلي من طغامكم وجهالكم .

فقال ابن ذي الجوشن : ذلك لك يأبن فاطمة [٢٧] ، وهنا استخدم الامام الحسين في حواره مع الاخر اسلوبا اخر بعد ان يئس من نقاشه بالأسلوب الديني ، وذلك عندما ضرب على وتر العصبية القبلية عندهم ، وكيف ان الاعراف القبلية تمنع الاعتداء على النساء والاطفال ،وانهى القوم الحوار مع الامام الحسين نهاية بشعة تنم عن عدم الاصغاء لصوت العقل والمنطق والدين:

وذلك ان الامام (ع) حمل على القوم حملة الليث المغضب ،فجعل لا يلحق احداً إلاّ بعجه بسيفه وألحقه بالحضيض ، والسهام تأخذه من كلّ ناحية ، وهو يتلقاها بنحره وصدره ، حتّى اصابته اثنتان وسبعون جراحة ،فوقف يستريح وقد ضعف عن القتال ، فبينا هو واقف إ ذ اتاه حجر فوقع على جبهته ، فسالت الدماء من جبهته ، فاخذ الثوب ليمسح عن جبهته وهنا اتاه اخر ما عند القوم من حوار وهو سهم محدد مسموم ، له ثلاث شعب ، فوقع في قلبه ،فقال الحسين (ع): بسم اللّه وباللّه وعلى ملّة رسول اللّه ورفع راسه الى السماء وقال : إلهي ، إ نك تعلم انهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الا رض ابن نبي غيره !

وهذه التفاته مهمة من الامام الحسين (ع) ان القوم باستهدافهم له انما يستهدفون رسول الله ، وهو بذلك الامتداد الحقيقي له ، وان اصل المعركة بينهم ليس لها هدف دنيوي من جهته ، بل هدفه اخروي وهو تثبيت الرسالة المحمدية في القلوب ، وحرب من يريد بالإسلام الانحراف والضلال.

والغريب ان بعض مؤرخي المسلمين يذكر ان الحسين (ع):" لما رهقه السلاح عرض عليهم الاستسلام والرجوع والمضي إلى يزيد فيضع يده في يده ،فأبوا إلا قتله فقتل "[٢٨] .

وللتعليق على ذلك نقول انه مجاف للواقع بدليل ان الامام الحسين كان الى اخر رمق له متمسكا بما ثار من اجله .

ثم استمرت الاحداث التي تدلل على اصرار الاخر في تجاهل النصح والمشورة والهداية من سبط الرسول الاكرم ، فيذكر السيد ابن طاووس : (ثم اقبلوا على سلب الحسين ،فاخذ قميصه إسحاق بن حوية الحضرمي ، فلبسه فصار ابرص وامتعط شعره !.. واخذ سراويله بحر بن كعب التيمي لعنه اللّه تعالى ، فروي انه صار زمناً مقعداً من رجليه ! واخذ عمامته اخنس بن مرثد بن علقمة الحضرمي ،وقيل : جابر بن يزيد الاودي لعنهما اللّه ، فاعتم بها فصار معتوهاً! واخذ نعليه الا سود بن خالد لعنه اللّه ، واخذ خاتمه بجدل بن سليم الكلبي وقطع إ صبعه (ع) مع الخاتم ، وهذا اخذه المختار فقطع يديه ورجليه وتركه يتشحط في دمه حتّى هلك ،واخذ قطيفة له (ع) كانت من خز قيس بن الا شعث ، واخذ درعه البتراء عمر بن سعد. فلما قتل عمر وهبها المختار لا بي عمرة قاتله ، واخذ سيفه جميع بن الخلق الا ودي) وكأنما اراد القوم ان يبينوا انهم لن يبقوا للحسين ذكر ولا اثر حتى متعلقاته الشخصية من ملابس وسلاح . ثم رضوا جسده الشريف بحوافر الخيل وكأنما بفعلتهم هذه ارادوا ان يقضوا على هذا الجسد المقدس المملوء محبة وموعظة ونصح للآخرين .

وهنا نلحظ كيف كانت عاقبة من يسد باب الحوار المثمر على نفسه، وكيف كان مصيره ، وهو اللعنة الابدية في دار الدنيا والعذاب المقيم في دار الاخرى.

الهوامش

١ الحافظ ابن عساكر ، تاريخ دمشق، ص ٢٣ ، رقم ٣١ .
٢ ابن هشام ، السيرة ، ص ٢.
٣ البلاذري ، انساب الاشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي ، دار الفكر – بيروت ، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م، ، ج ٣، ص ١٤٢.
٤ الترمذي، السنن ،كتاب المناقب ، مناقب الحسن والحسين ، حديث رقم (٣٧٧٥) .
٥ البلاذري ، انساب الاشراف ج ٣ ، ص ١٤٢ .
٦ خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط، دار القلم ، مؤسسة الرسالة – دمشق ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٧، تحقيق : د. أكرم ضياء العمري ، ج ١،ص٥٦
٧ محمد كاظم القزويني، فاجعة الطف،ص٣.
٨ هبة الدين الشهرستاني، نهضة الحسين ،دار الكتاب العربي ،بيروت ،ص٤٤–٤٥.
٩ سورة الفرقان: اية ٤٤.
١٠ سورة القلم : اية ١٣.
١١ الذهبي ، تاريخ الإسلام:،ج١، ص٥٥٦.
١٢ هبة الدين الشهرستاني ،النهضة الحسينية، ص٥١.
١٣ المسعودي ،مروج الذهب ، ص٣٧٢.
١٤الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٥، ص٢٤٩.
١٥ مروج الذهب ، المسعودي ،٣٧٢
١٦ الملك المؤيد إسماعيل بن أبي الفداء، تاريخ أبى الفداء ، ص٢٩٢.

١٧ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، البداية والنهاية، مكتبة المعارف – بيروت،ج٨، ص١٧٢.
١٨ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢،ص١٤٦.
١٩ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ص١٧٢.
٢٠ عزة الله الطبسي. ، مع الركب الحسيني من المدينة الي المدينة ، ص٨٠. نقلا عن ابن كثير.
٢١ المصدر نفسه، ص ١٦٢.
٢٢ المصدر نفسه، ص ١٧٢
٢٣ ابن الجوزي، المنتظم ، ج٥ ،ص ١٩٦ .
٢٤ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ،ص٢٠٦
٢٥ عزة الله الطبسي ، مع الركب الحسيني من المدينة الي المدينة ، ص ٢٥١. حيث ينقل عن الخوارزمي.
٢٦ سورة نوح : الآيات ٥-٦-٢٦
٢٧ السيوطي، تاريخ الخلفاء،ص٨٤.
٢٨ عزة الله الطبسي ، مع الركب الحسيني من المدينة الي المدينة ،ص ٢٥٠، يروي ذلك عن ابي مخنف.